

التفكير بين الإنسان والحيوان

"التفكير هو السر في طفرة الإنسان وتربعه على عرش الكائنات"

"الحية، وتمرده على الطبيعة، تمرداً بلغ به حد استغلال قواها"

"لمصلحته، والسيطرة عليها بفهم أسرارها، وفضح خباياها."

المؤلف

الذكاء العملي

كشفت البحوث النفسية في مجالي الإنسان والحيوان عن حقيقة قد تطامن من غرور الإنسان بعض الشيء، تلك هي أن الحيوان لا يسلك سلوكاً آلياً بحتاً كما ظن ديكارت الفيلسوف الفرنسي، بل ولا يسلك سلوكاً غريزياً بحتاً كما اعتقد الكثيرون زمناً طويلاً، وإنما سلوكه في كثير من المواقف يتم عن قدر من الذكاء العملي يمكنه من التصرف إزاء ما يجد من مواقف تصرفاً كفيلاً بتحقيق أغراضه. فهو لا يهتدي بالفطرة وحدها التي تسم السلوك بطابع الجمود، وإنما هو يعدل سلوكه ويتكر الوسائل الجديدة، حتى ليسهل علينا أن نلاحظ - لدى الحيوانات العليا على وجه الخصوص - أنماطاً من السلوك تتصف بالمرونة وتتم عن قدر من الذكاء لا

يقل كثيراً عن ذكاء الأطفال في نفس المواقف. ومن التجارب العلمية ما يثبت قدرة الحشرات على الاستفادة من التجارب الماضية في التكيف للظروف الجديدة، وفي هذا تكمن البذرة الأولى للذكاء.

وكلما صعدنا في السلسلة الحيوانية زاد ذلك القدر من الذكاء العملي الذي يبلغ أقصاه لدى الكلاب والقرود. وبذلك تتلاشى الأسطورة القديمة، التي تفصل فصلاً حاسماً باتاً بين عالم الحيوان المحكوم بالغريزة، وعالم الإنسان المحكوم بالعقل، وتسفر الحقيقة التي لا مراء فيها: ألا وهي أن الكائنات الحية تنتظم سلسلة متصلة الحلقات من أسفل إلى أعلى، منطلقها التطور من الأشكال الدنيا للحياة، إلى الأشكال العليا، في غير ما اختلاف حاد يكسر وحدة الحياة على ظهر الأرض، وتضييق الشقة الفاصلة بين الإنسان والحيوان فكلاهما يسلك سلوكاً عقلياً رائده الذكاء. فما الفارق إذن بين ذكاء النوعين؟

الإنسان من حيث السلوك العقلي في قمة الحيوانات، فهو أقدرها على السلوك سلوكاً عقلياً. هو في حياته يصارع الطبيعة وأحداثها، لا بحكم الفطرة فحسب، بل يفوق الحيوان قدرة على استغلال ذكائه في صراعه هذا مع الطبيعة: تقسو عليه ببردها وقيظها وأمطارها، فيهرع إلى الأشجار يتخذ من أغصانها بيوتاً. تتوالى عليه فصول السنة بعضها فيه الخصب ووفرة الغذاء، وبعضها جذب لا طعام فيه، فيبتكر الوسائل يتجنب بها المجاعة، ويهتدي بعد تدبر وإعمال روية إلى ما نعرفه من مختلف أساليب خزن المياه وحفظ الأطعمة، وعدم الاكتفاء بما تدر الأرض بطبيعتها، فيزرع

ويستغل كامن قواها. يخشى هجمات الوحوش الضارية، وعدوان القبائل المعادية، فيتخذ العدة لذلك بصنع الأسلحة، مستخدماً كل ما تقع عليه يده من أحجار وأشجار ومعادن. وهو إذ يفعل ذلك يهتدي بذكائه، بتفكيره العملي الذي يتطور مع الزمن، تطوراً يكشف عنه ما لاحظته العلماء المنقبون عن آثار العصور البائدة من تطور الآلة الإنسانية من الآلة الحجرية القديمة إلى الحجرية الحديثة إلى المعدنية، والأسلحة من الأحجار إلى النبال فالخنجر والسيوف فالبنادق حتى القنبلة الذرية في العصر الحديث.

وهكذا في كل ميدان من ميادين الحياة، يستخدم الإنسان تفكيره وسيلة لتحقيق أغراضه، وهذا هو الأصل في التفكير: وظيفة حيوية عملية تعين الحيوان على الصمود في الحرب الخالدة بينه وبين قوى العالم الطبيعي التي لا تعرف التراجع، وذلك أن الفطرة وحدها لا تكفل انتصاره.

بيد أن اختلاف التفكير الإنساني عن التفكير الحيواني ليس اختلافاً في المرتبة أو الكمية فحسب، بل هو اختلاف في النوع أو الكمية أيضاً. فتفكير الحيوان عملي كله، هو برمته وسيلة إلى العمل، إلى الحياة والبقاء. لا يستغل الحيوان قدرته العقلية المتواضعة إلا في إرضاء مطالبه الغريزية: من الاعتداء والاحتماء، وحماية الصغار، والتناسل الخ. أما الإنسان فبعد إرضاء مطالبه الغريزية يستغل قواه العقلية في الكشف عن أسرار ما يدركه من ظواهر الكون، والبحث عن علل الحوادث التي تقع تحت ناظره، وتفسير التغيرات التي تطرأ على مختلف الكائنات. ولا شك أن الحيوان

كالإنسان فطر على حب الاستطلاع لكل جديد تجنباً لما قد ينطوي عليه من خطر، أو طمعاً فيما قد بדרه من خير ونعمة؛ ولكن الإنسان يتجاوز هذه الحدود النفعية فيستطلع أحياناً من أجل المعرفة في ذاتها، ويجني من وراء ذلك لذة لا تقل عن اللذات الجسدية التي يجنيها من وراء ميوله الغريزية الأخرى.

لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يفكر أحياناً من أجل التفكير في ذاته، بل والذي يجاوز ذلك إلى التفكير في التفكير: يحمي أساليبه، ويفتش عن مصادره، ويسجل أخطائه، وينقب عن أسباب الوقوع في الخطأ، ويعدد السبل الموصلة إلى المعرفة. والإنسان عندما يفكر هذا النوع من التفكير نقول إنه يفكر تفكيراً نظرياً لا غرض له إلا المعرفة. على أن هذه المعرفة تعود عليه بالنفع العملي وتزوده بأمتن الأسلحة التي تكفل له النصر في معركة الحياة على قوى الطبيعة الغاشمة التي لا تبالي بغير المضي في الطريق المرسوم، وفق قوانين جامدة لا تتزحزح ولا تتزعزع.

الرمزية في التفكير الإنساني

مهما سما حظ الحيوان من الذكاء، وأيا كانت قدرته على تعديل سلوكه، والتصرف والاحتيايل إزاء المواقف الجديدة تحقيقاً لأغراضه، يقي رغم ذلك فرق جوهري يميز للذكاء الإنساني من ذكائه، فرق يولد فروقاً أخرى جوهرية، هي السر في تربع الإنسان على عرش الكائنات الحية، وسيطرته على الطبيعة بقدر ما يكشف من أسرارها وقوانينها. وسأحاول

أن أشرح هذا الفارق والفروق الأخرى الفرعية. أما الفارق الأصلي هو: أن الذكاء الإنساني ليس ذكاء حسيّاً فقط بل ذكاء رمزياً أيضاً، فالوظيفة الرمزية في التفكير الإنساني هي الفاصل الحق بين عقل الإنسان وعقل الحيوان، ولذلك ينبغي أن نذكر أن كلمة تفكير لا تطلق على الحيوان إلا تجاوزاً- إنما التفكير الحق هو التفكير الرمزي.

بيان ذلك أن الحيوان يدرك الموجودات المادية إدراكاً حسيّاً، أي تنطبع صور الأشياء التي يحسها بحواسه على صفحة الذهن. فهو يدرك كائنات مفردة أو جزئية- حسب التعبير المنطقي- ويستعيد صورها في غيبته، ويتعرف عليها إن رآها بعد ذلك. الكلب مثلاً: يرى صاحبه فيدركه إدراكاً حياً، ويرى غريباً فلا ينقطع عن النباح مما يدل على أنه أدرك الغريب، وعلى أنه يستطيع التمييز الحسي بين شيئين كما استطاع التمييز حسيّاً بين صاحبه وبين الغريب. وإذا تغيب صاحبه ردحاً من الزمن عاد بعده إلى بيته، اندفع نحوه وقد بدت عليه علامات الارتياح التي تتم عن وجود القدرة على التذكر والتعرف. فالحيوان يخطئ إذن بكثير من القوى العقلية الموجودة لدى الإنسان كالإدراك الحسي وترابط الصور، والتمييز والتخيل والتعرف والتذكر، بل إن بعض الحيوانات حتى العصافير تتحرك حركات استدلل منها بعض علماء النفس الحيواني على وجود الأحلام لديها. بيد أن هذه العمليات جميعاً لا تتجاوز المستوى الحسي بأي حال، فما يكون في ذهن الحيوان إذ يدرك أو يتخيل أو يحلم، ليس إلا صورة أو مجموعة من الصور الحسية لأشياء جزئية مشخصة، تتوالى على

صفحة الذهن، متداخلة متشابكة متفاعلة، كما تتوالى صور الفلم على الشاشة البيضاء.

إن المادة التي يعالجها عقل الحيوان هي صور الموجودات الجزئية الموجودة في زمان معين ومكان بالذات، والمتصفة بالصفات الحسية كاللون والطعم والرائحة والشكل والحركة والصوت والملمس، وليس بمقدور الحيوان-أيا كان ذكاؤه- أن يسمو إلى إدراك المعاني الكلية التي يستخلصها الإنسان من مدركاته الحسية. فالإنسان لا يقف عند حد إدراك الأفراد إدراكاً حسيّاً وتذكرها وتخيلها، ولكن يدرك أيضاً ما تشترك فيه من صفات ويسقط أوجه الخلاف، ويجرد بذلك المعنى العام الذي يدل عليها جميعاً. ويدرك عمرواً وزيداً وفلاناً وفلاناً من الناس، ويتغاضى عن الصفات التي يختلفون فيها من طول وشكل ودين وأخلاق، ويدرك فوق ذلك أنهم جميعاً- بصرف النظر عن حالاتهم الخاصة- يشتركون في صفة الإنسانية. لا يدرك الكلب والقط والعصفور فقط، بل ينتزع من أفراد كل نوع من هذه الأنواع معنى عقلياً- لا حسيّاً- هو معنى الحيوانية الذي ينطبق على أفراد الحيوان جميعاً بنفس الدرجة. يدرك الإنسان تصرفاً من التصرفات الجزئية ويحكم عليه بأنه خير، ويدرك تصرفاً آخر ويحكم عليه بأنه شرير، فهو يدرك إذن معنى الخير ومعنى الشر إطلاقاً، أي بغض النظر عن الفاعل وظروف الفعل، يدرك الإنسانية والحيوانية، والخير والشر، واللذة والألم، والموت والحياة، والحرارة والبرودة، والسعادة والشقاء، دون نظر للأمثلة الجزئية التي تدل عليها هذه المعاني، ومن هنا كانت العملية

العقلية التي تتغاضى عن الجزئيات بصفاتها الحسنة لتستخلص المعنى العام الذي ينطبق على جزئيات كثيرة تدعى عملية التجريد.

وظيفة التجريد تزود الإنسان بالمعاني التي ترمز إلى ملايين المدركات الحسية، فتوفر عليه مجهوداً عقلياً جباراً ومجهوداً جسيماً أكبر. لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يتجاوز عقله المستوى الحسي إلى المستوى العقلي المطلق من قيود الزمان والمكان، وكان أقدر الحيوانات على التصرف والتكيف للظروف، فهو لا يحتاج إذ يفكر إلى تمثيل صور الموجودات التي يفكر فيها، بل يكفي أن يستحضر معنى واحداً كالإنسانية يقوم مقام الملايين من الأفراد الجزئية الحسنة. الحيوان يتعامل بالمواد الحسنة، والإنسان قد يدع الموقف الحسي جانباً، ويرجع إلى عقله متعاملاً بالرموز التي تمثل عناصر الموقف. فهو إذ يريد أن يشيد بناء ضخماً، لا يستحضر المواد الأولية من حجارة وأخشاب وحديد وأسمنت ثم يعمل فكره في هذا الخليط مجرباً بانياً ثم هادماً ليصلح ما فسد ويقوم ما انحرف، ولكنه يتناول القلم والقرطاس ويسطر المربعات والمثلثات والدوائر، وغير ذلك من الرموز الهندسية والمعادلات الجبرية والحيل الميكانيكية حتى يتم التصميم. وما التصميم إلا مشروع عقلي صرف، ثم نتيجة التأليف بين رموز عدة، فهو بدوره رمز يمكن تنفيذه في الواقع في أي وقت وفي أي مكان وبأي نوع من المواد. ثم يشرع الإنسان بعد ذلك في تنفيذ التصميم بتشديد بناء هو حالة مفردة جزئية من حالات عدة في حين الإمكان.

اللغة

يتفرع عن القدرة الرمزية إذن قدرة إنسانية فريدة هي الاختراع الذي تخطئ إن اعتبرناه مستنداً إلى الذكاء العملي اليدوي وحده، وهي السر كذلك في القوة الفكرية العظيمة والإنتاج الإنساني الصميم، أعني به "اللغة"، فاللغة مجموعة من الرموز يحملها ما أدرك من صفات وما أحس من مشاعر وما ينفي من آمال، وينقلها إلى غيره عن طريق الإشارة أو الإيماءة أو اللفظ، فيكفي أن أتفوه بلفظ إنسان حتى تبرز في ذهنك الصفات التي ينطوي عليها معنى الإنسانية الذي يرمز إلى جميع أفراد الإنسان، وتتابع على صفحته صور حسية عدة، مختلطة مبهمة، مثيرة مجموعة من الذكريات والأخيلة والأحاسيس لا حصر لها.

طالما ردد الفلاسفة "إن الإنسان حيوان ناطق"، ورددنا نحن قولهم هذا دون تدبر لحكمة اختيارهم لفظ النطق للدلالة على التفكير. وبعد ما أسلفنا تبين العلاقة الوثيقة بين اللغة وبين الرموز، بين اللفظ وبين الفكرة. فاللغة نتاج القدرة الرمزية، واللفظ المنطوق به حامل للفكرة المعقولة موشاة بخليط من المشاعر النفسية التي لا تنفصل بحال عن مجرى التفكير، ويتبين صدق الفلاسفة إذ جعلوا النطق - أي التفكير الرمزي - فيصلا بين الإنسان وسائر الحيوان، يتبين صدقهم لسببين:

الأول: أنه رفع الإنسان فوق الزمن وحرره من قيود المكان، وأكسبه قدرة عقلية فائقة لم تكن لتتيسر له لو اقتصر على التعامل بالجزئيات،

وقدرة عملية ممتازة تتضح أكثر ما تتضح في المخترعات والمنتجات الصناعية والفنية المختلفة.

والثاني: أنه شكل حياة الإنسان الاجتماعية تشكياً راقياً؛ ذلك أن اللغة يسرت اتصال الناس بعضهم ببعض اتصالاً فكرياً وعاطفياً في آن واحد، فهي أداة التعبير عما يدور في الذهن من معان، ووسيلة الربط بين القلوب بما تنقل من مشاعر.

تؤدي اللغة كل ذلك بأيسر وسيلة وأروعها، وهي لا تربط بين فردين في صعيد واحد فقط، بل تصل بين أفراد وأقوام تفرقوا شيعاً في شعاب الأرض قاصيها ودانيها؛ ولا تربطنا بالأحياء فقط، بل بالسلف وقد وراه التراب، وطواه التاريخ في عصوره السحيقة. ألفت اللغة إذن بين القاصي والداني، وبين الأحياء والأموات، وبين الصغار والكبار، وبين المتمدنين والبدائيين. وتيسر بفضلها خزن التجارب والمعارف نقوشاً على جدران المعابد ورموزاً في بطون الكتب سجلاً خالداً يغني عن تجشم الصعاب التي تجشمها غيرنا، ويوفر علينا جهداً هو حقيق أن يبذل في تحصيل معارف جديدة وكسب تجارب مفيدة، تضيف إلى تراث الإنسان ذخائر مستحدثة ولما كانت اللغة بمثابة النافذة التي نطل منها على نفوس البشر وعقولهم كانت بحق أداة الوحدة الاجتماعية أو عامل التكامل الاجتماعي - على حد تعبير مدرسة علم النفس التكاملي -^(١) عامل التأليف بين عقول البشر وقلوبهم وأذواقهم، حتى قال بعض المفكرين إنه إذا كان للأفراد متفرقين

^(١) أنظر كتاب مبادئ علم النفس العام للدكتور يوسف مراد.

عقول خاصة فلهم مجتمعين عقل عام يسمونه "العقل الجمعي" الذي يتولد عن اجتماع عقول الأفراد ويزيد عن مجموعها. فالأفراد مجتمعين يكتسبون كياناً مستقلاً عن الأفراد، وللمجتمعات منطق خاص يعلو على منطق الأفراد، وإرادة تفرض نفسها على إرادة الأفراد الجزئية، ونفوذاً يكسر من شوكتهم.

وغير خاف أن التكامل الاجتماعي، أو متانة البناء الاجتماعي، ميزة حظي بها الإنسان - بفضل الوظيفة الرمزية - بينا الحيوان لا يزال في مرتبة دنيا من حيث الترقى الاجتماعي. ألا صدق الفلاسفة الذين فصلوا بين الإنسان والحيوان بوصفهم الإنسان بالحيوانية والنطق.